

## عفان بن سليمان البغدادي عالم الخلل الاجتماعي بأمواله

٣٤

البر في الإسلام يُعدُّ رابطة بين الإنسان وربه، وهي رابطة رضوان من الله وأجر وثواب وخير وبركة. كما أنها رابطة شكر من الإنسان لله عز وجل على ما أنعم وتفضل وأحسن لعبده، وهي من ناحية أخرى رابطة بين الإنسان وأفراد المجتمع الذي يعيش فيه، قوامها المودة والتعاطف والرحمة. يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنَّهُمْ اتَّوَلَّاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>. ويقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>. ويقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَقَ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾<sup>(٣)</sup>. ويقول: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾<sup>(٤)</sup>. ومن هذا يتضح أن للبر في الإسلام مكانة، فوجد المؤمنين الأوائل يحرصون عليه، ومن هؤلاء المؤمنين الشيخ الصالح عفان بن سليمان المصري البغدادي.

(١) سورة آل عمران - الآية ١٨٠.

(٢) سورة البقرة - الآية ٢٦١.

(٣) سورة الليل - الآيات من ٥ - ٧.

(٤) سورة سبأ - من الآية ٣٩.

والشيخ الصالح عفان بن سليمان البغدادي . ليس الذي تُعرِّفه المراجع العلمية والفلسفية بالفيلسوف الطيب موفق الدين البغدادي الذي وُلد ببغداد ودرس الطب والفلسفة واشتغل بتدريسهما حيناً بدمشق والقاهرة، حيث جاء إلى مصر والتقى بعلمائها كما التقى بالفيلسوف موسى بن ميمون إلى أن توفي في بغداد عام ١٢٣١ ميلادية .

وكذلك شيخنا الصالح عفان البغدادي ليس الذي تعرفه كتب النقد والأدب بالأديب الناقد عبد القادر البغدادي الذي ولد أيضاً في بغداد وتوفي بالقاهرة عام ١٦٨٢ بعد أن ظل فترة من حياته يدرس العربية وآدابها وأخبارها تاركا أثراً خالداً يقع في اثني عشر مجلداً «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» الذي حققه الراحل محمد عبد السلام هارون وغيره من أمهات الكتب .

إن شيخنا الصالح عفان بن سليمان مصري المولد والمنشأ والممات . . حيث ولد بالقاهرة وعاش فيها ودفن بحى مصر القديمة، ويوجد له ضريح الآن يزوره الناس للتبرك .

وُلد هذا الشيخ الصالح بالقاهرة في القرن الثالث الهجري في عهد أحمد بن طولون . . وكما تقول الروايات والمصادر التاريخية إنه كان يعمل في مهنة الخياطة، وهى من المهن التى كان ينتسب إليها العديد من أهل زمانه . . وكانت إلى جانب أهميتها من الناحية الاقتصادية تحظى بتوقير الناس واحترامهم . . إذ كان يتردد على أهلها الولاة والأمراء ووجهاء المجتمع القاهري وقتئذ . وقد بلغ من إحترام المجتمع لهذه المهنة أن هناك من كان ينتسب إليها من الأسر والعائلات فيقال ابن الخياط أو عائلة الخياط . ومع أن الشيخ عفان البغدادي كان في حرفة الخياطة بسيطاً متواضعاً فإنه كان في الفقه والدين عظيماً وجليلاً . . فقد كان ينصرف عن عمله ليتوجه إلى مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، أو مسجد أحمد بن طولون بالقطائع حيث يحفظ القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ويدرس معانيهما، ويتفقه فيهما على أيدي علماء عصره الذين كان يحضر دروسهم، حتى تكونت لديه وجهة نظر في الدين والعقيدة . . وصار يقوم بالوعظ والتدريس، وأصبح له تلاميذ كثيرون ممن يتلقون عليه العلم والفقه، حتى اشتهر أمره بين الناس بالشيخ الفقيه الصالح . وذاع صيته في الأوساط العلمية وقتئذ، فكان ملتقى لطلاب العلم والبحث .

ويستمر هذا الشيخ الصالح على هذا الحال راضياً قنوعاً برزقه البسيط حتى يسافر إلى بغداد مصاحباً ركب قطر الندى . . ويبقى هناك فترة ثم يعود إلى مصر فيصبح فيها موسراً غنياً . . مضافاً إلى اسمه لقب البغدادي وكان يوجه ثروته وغناه للصالح العام، معلناً أن هذه الثروة من رزق الله فلا بد أن تقضى حاجة خلق الله .

وتحدثنا الروايات التاريخية فتقول كان الشيخ الصالح عفان بن سليمان تاجراً كثير المال . . ومع ذلك لم يترك شيئاً لذريته من بعده حيث جعل ماله وربحه صدقة لله . . فكان لا يبيت ليلة حتى يطعم أهل خمسمائة بيت في القاهرة . . معلناً أن ماله ورزقه لله حتى قيل إنه لا يكون هناك جائع في المكان الذي يوجد فيه الشيخ عفان .

وفي موسم الحج كان ينتظر الحجاج ذهاباً وإياباً بطعام من مصر عند العقبة وفي بره وكرمه يقول السخاوي: اشترى الشيخ الصالح عفان البغدادي ألف جمل من بر «القمح» حتى بلغ ثمنها إلى ثلاثة أمثال قيمتها، وخرج وجلس على باب داره وقال لأحد عماله «اجمع لي من يشتري هذا البر . . فجمع له الناس، فلما قدموا له أضعاف ما دفع قال: لقد ادخرتها عند الله سبحانه وتعالى ولن أبيعها لكم حتى تستغلوا القراء والمساكين . . وقام وفرقها على الأيتام والأرامل من فقراء المسلمين في المدينة حتى لم يبق دار من هذه الدور إلا وقد نال نصيبه من هذه الصدقة .

ولقد ذاع صيت هذا الشيخ الصالح بين العام والخاص، والغنى والفقر، حتى كان يسعى إلى مجلسه الملوك والأمراء والعلماء والفقهاء . . وكان قاضي مصر وقتئذ الفقيه الشافعي ابن خيران يخلو به ويسأله عن الناس لكثرة ترددهم عليه، فيرد الشيخ الصالح لا تسألني إلا عن نفسي وعجزها عن تأدية فرائض الله .

لقد كان الشيخ عفان بن سليمان البغدادي يؤمن بالآية التي يردها دائماً ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾<sup>(١)</sup>. أى تطهرهم من الذنوب وحب المال إلى درجة أن يصرفهم عن حب الله وعبادته، وتركيزهم عنده سبحانه وتعالى

(١) سورة التوبة - من الآية ١٠٣ .

وتنمى حسناتهم . وترفع بها درجاتهم إلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين ، وذلك لما فيها من ربط الصلات وتوثيق العلاقات بين المحسن بماله ، وآخذ إحسانه ، ولما فيها من ذهاب الأحقاد بينهما ، ولما فيها أيضاً من سد الخلل والتخفيف من آلام الحياة وضيق الرزق . ولما فيها كذلك من التقريب بين طبقات المجتمع الإسلامى حتى لا تكسر قلوب الفقراء بتكبر الأغنياء عليهم .

وكان إذا سئل عن الإنفاق بهذه الصورة غير التقليدية كان يرد بأن ذلك يبارك ماله ، ويكون سبباً فى دفع كثير من الأضرار . وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال : « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وأدفعوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع » .

وهكذا عاش هذا الرجل الصالح حياة حافلة بالعلم والفضل ، وبالجلود والكرم ، وبالسلوك الطيب والعمل الصالح ، وبالبر والتراحم . . حتى كانت وفاته عام ٣٢٦ للهجرة ، ودُفن فى داره بمصر القديمة .

\*\*\*